

دور مؤسسات التعليم الحربوادي مزاب في إثراء رصيد اللغة العربية لدى
التلاميذ والطلبة

The role of free education institutions in the Mzab Valley in enriching
the Arabic language stock of pupils and students

حمودين بكير

جامعة غرداية

hbakir47@gmail.com

الشيخ صالح خالد *

جامعة غرداية

chikhsalah.khaled@univ-ghardaia.dz

تاريخ القبول: 2024-05-23

تاريخ الإرسال: 2024-03-26

ملخص:

تهدف الدراسة إلى إبراز الثراء في رصيد اللغة العربية لدى التلاميذ والطلبة المنتميين إلى مؤسسات التعليم الحربوادي مزاب الذي يعتبر من النماذج التي ساهمت بالجزائر في ثراء اللغة العربية من جانب الإنتاج أو التلقي وذلك منذ قرون من الزمن ولا تزال. وستعرض الدراسة ظروف نشأة هذا التعليم وأشكاله ومختلف تطوراته إلى تاريخ اليوم الذي لا يزال يؤدي فيه دوره في ترسيخ الهوية الإسلامية الجزائرية. كما ستقدم الدراسة مختلف المرتكزات التي ساهمت في هذا الثراء بأرقام ونماذج واقعية استقرائية، ومظاهر ذلك في النتائج والمخرجات. الكلمات المفتاحية: وادي مزاب؛ تعليم حر؛ لغة عربية؛ تلاميذ؛ طلبة.

Abstract:

The study aims to highlight the richness of the Arabic language among pupils and students belonging to free education institutions in the Mzab Valley, which is considered one of the models that have contributed in Algeria to the richness of the Arabic language in terms of production or reception, for centuries and still is.

The study will present the circumstances of the emergence of this education, its forms, and its various developments up to the present day, in which it still plays its role in consolidating the Algerian Islamic identity.

The study will also present the various foundations that contributed to this richness with realistic numbers and inductive models, and the manifestations of this in the results and outputs.

Keywords: free education; Mzab Valley; Arabic language; pupils; students.

مقدمة:

تُعتبر منطقة وادي مزاب نموذجاً حياً لثراء رصيد اللغة العربية سواء في جانب التدريس والتعليم أو في جانب الإنتاج والتأليف والكتابة والشعر وذلك منذ قرون من الزمن ولا تزال، وقد ساهمت في ذلك أسباب كثيرة لعلّ مُجملها تلك المسؤولية التربوية التكوينية التي تحمّلها نظام حلقة العزابة² الذي أسّسه الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي، حيث تُعتبر مؤسسات التعليم الحربوادي مزاب امتداداً تاريخياً وروحياً لهذا النظام الذي تجاوز أهل وادي مزاب قرناً من الزمن وهم مُستمسكون به، مستفيدون من مزاياه.

وتُعتبر مؤسسات التعليم الحربوادي مزاب لدى أهلها بمثابة قلعة حصينة صمّدت عبر التاريخ أمام مختلف ألوان الغزو الفكري، والتغريب الاستعماري، ولا تزال تؤدّي وظيفتها، وترزّع في الأجيال قيم الصّلاح، رغم الثّورة المعلوماتية والإعلامية، ومُهدّيات الهوية الإسلامية الجزائرية.

تأتي هذه المداخلة لتجيب عن الإشكالية التي تُطرح سائلة عن الحدّ الذي ساهمت به هذه المؤسسات في تنمية رصيد اللغة العربية لدى التلاميذ والطلبة، وذلك بمنهج استقراء وتحليل بعض الأحداث والمعطيات من خلال العناصر الآتية:

² - نظام حلقة العزابة أو نظام الحلقة هو نظام أسّسه الإمام أبي عبد الله محمد بن بكر سنة 409هـ، يطلب من شيخه أبي زكرياء فصيل بن أبي مسور لأجل جمع شتات الإباضية بعد محاولاتهم لتأسيس إمامة جديدة، بعد سقوط الدولة الرستمية.

تعتبر حلقة العزابة بمثابة مجلس الشورى في إمامة الظهور، يتولى أعضاؤها تسيير أمور الدين والعلم في المجتمع كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتسيير الأفراح والمآتم والأوقاف... وحلقات العلم، وقد تقلّصت بعض مهامها اليوم، لكنها تعتبر حالياً السلطة الروحية للمزابين في كامل قصور مزاب.

منطقة وادي مزاب.

ظروف نشأة التعليم الحروبواي مزاب.

تطور أشكال التعليم الحروبواي مزاب.

مرتكزات مؤسسات التعليم الحر في تنمية رصيد اللغة العربية لدى التلاميذ والطلبة.

مظاهر ثراء رصيد اللغة العربية لدى تلاميذ مؤسسات التعليم الحر وطلبها.

1. منطقة وادي مزاب:

تُعرف منطقة وادي مزاب ببلاد الشبكة وذلك لشبكة الوديان التي تتخللها وتُحيط بها، ويُعتبر وادي مزاب من أهم تلك الأودية التي تُحيط به سبعة قُرى أو قصور في تعبير المزابيين وهي: غرداية، مليكة، بني يزقن، بنورة، العطف، بريان، القرارة.

تنتهي منطقة مزاب إلى ولاية غرداية التي تبعد عن العاصمة الجزائرية بـ 600 كلم، ويسكنها المزابيون الذين ينتمون إلى أمازيغ الجزائر، تجمُّهم قيم دينية واجتماعية واقتصادية واحدة، وتربطهم مع غيرهم من الجزائريين أواصر الدين والوطن، والعرق³ أحياناً.

2. ظروف نشأة التعليم الحروبواي مزاب:

تُعتبر الحركة العلمية بوادي مزاب امتداداً للنظام الذي أسَّسه الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي سنة 408هـ وهو ما سَيَّ بنظام الحلقة أو حلقة العزابة فيما بعد.

³ - يرجع نسب المزابيين إلى قبيلة زناتة الأمازيغية، ويشاركونهم في النسبة إلى هذه القبيلة كثير من أبناء الوطن الجزائري.

وقد أخذت هذه الحلقة بوادي مزاب على عاتقها مسؤولية التعليم القرآني وتربية النشء، يقول محمد ناصر: "كانت المسؤولية التربوية هي أهم ما تقوم به الحلقة في عهود نشأتها الأولى، بل إنَّ تربية النشء والعناية بتحفيظهم القرآن، وتعليمهم اللغة العربية والشريعة الإسلامية كانت المهمة الوحيدة التي كانت الحلقة قد أنشئت من أجلها، وهذا إدراك من علماء المذهب وشيوخه بأنَّ التربية هي أهم الوسائل التي تنشئ الأجيال المسلمة عقيدة وعملا، وهي من الطرق التبليغية التي تضمن الاستمرار للمجتمع المحمّدي مذهبا وسلوكاً"⁴.

وقد كان التعليم في بداية الأمر في المحاضر والكتاتيب التابعة للمسجد أو لمشايخ البلدة، لكن مع تطوّر الوقت ودخول الاستعمار الفرنسي إلى وادي مزاب نشأت المدارس الرسمية الفرنسية، فتمسك المزابيون بالتعليم القرآني الحرّ لحماية الهوية الإسلامية فنشأت المدارس القرآنية العصرية لتكون صمام أمان للمجتمع أمام الانحراف الديني والفكري الذي يبثّه الاستعمار.

وقد سمي هذا التعليم بالتعليم الحرّ لعدم ارتباطه بالتعليم الرسمي العمومي أو التعليم الخاص الذي حدّدت ضوابطه وزارة التربية والتعليم الجزائرية.

3. تطور أشكال التعليم الحربوادي مزاب:

لو حاولنا أن نرصد أشكال هذا التعليم الحرّ لحدّثنا فيه المراحل الآتية:

1.3- المرحلة الأولى:

ويمكن أن نحدّدها من بداية تأسيس قرى وادي مزاب أو من بداية الحركة العلمية للفرس طائي سنة 409هـ إلى دخول فرنسا لمزاب سنة 1882م، حيث كان التعليم على شكل

⁴ - محمد صالح ناصر، (1989م)، حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي، دراسة وصفية تحليلية للمجالس الدّينية بوادي ميزاب "جنوب الجزائر"، مكتبة الضامري، دط، دار النصر للطباعة الإسلامية، القاهرة، ص 31.

محاضر وكتاتيب تابعة للمسجد تشرف عليه حلقة العزابة أو أحد مشايخ البلدة، يتعلم فيها الكبار والصغار وفي أوقات متعددة خاصة ما بين الصلوات، مع اختلاف بين الكبار والصغار في مواد الدراسة ومحاوريها، فالصغار يتعلمون "الكتابة والرسم وحفظ القرآن الكريم ومبادئ الفرائض الدينية، وخاصة العقيدة والوضوء والصلاة"⁵، أما محاضر الكبار فـ: "يؤمّمها الراغبون في التفقه في دينهم، وتلقّي بعض العلوم العربية من نحو ولغة وصرف"⁶.

2.3- المرحلة الثانية:

وهي امتداد وتطوّر للمرحلة الأولى، وتمتدّ من أواسط القرن التاسع عشر الميلادي إلى ما بعد دخول فرنسا لمزاب بعشر سنوات تقريبا، حيث تميّزت بفتح مدارس للتعليم القرآني في وسط النهار من طلوع الشمس إلى الزوال، وذلك لأن الناس لم يروا كفاية في التعليم بالمحاضر في الأوقات القصيرة. وقد تأثروا في هذه النظرة بدعوات العلماء المصلحين أمثال الشيخ عبد العزيز الثميني والشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش ...⁷

3.3- المرحلة الثالثة:

تبدأ هذه المرحلة بإصدار القانون الفرنسي في أكتوبر 1892 المنظم للتعليم العربي في الجزائر والذي ينص في فصله 55 على ما يلي: "الصبيان الذين لهم عمر مدرسي -يعني من ستّ سنين كاملة إلى ثلاث عشرة سنة كاملة- لا يجب أن يقبلوا في المحاضرة في أوقات

⁵ - تركي راجح، (1972م)، التعليم القومي والشخصية الوطنية (1931-1956)، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، ملحق رقم (8)، تقرير عن التعليم العربي الحريوادي ميزاب، رسالة من إبراهيم عمر بيوض إلى تركي راجح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص 418.

⁶ - المصدر السابق، ص 419.

⁷ - يُنظر: المصدر السابق، ص 419.

الدرس في المسيد العمومي"⁸، وإصدار المرسوم الذي يمنع تدريس اللغة العربية إلا بترخيص فرنسي، وذلك سنة 1904 م⁹.

إلا أنّ المزابيين قاطعوا هذا التعليم ونبذوه، فأصبحت السلطة الحاكمة الفرنسية تُجبر الأولاد البالغين سنّ الدراسة على الالتحاق بهذه المدارس، وتجرحهم إليها قهراً.. ما جعل أولياءهم يُحاولون تهريب أولادهم إلى خارج مزاب ليسلموا من هذا القهر، إلا أنّ السلطات الفرنسية شددت الخناق عليهم فمنعت مغادرة أي تلميذ لمزاب إلا برخصة، وأمرت كل رئيس عشيرة أن يرافق تلاميذ العشيرة يوم الدخول المدرسي.

"ظل بنو مزاب يُقاطعون التعليم الفرنسي ويعتبرون أنّ المدارس الفرنسية أنشئت قصد نشر الكُفر ومحاربة الإسلام، وأنّ مهمتها القيام بالغزو الفكري لأبناء المنطقة، وسلخ المجتمع تدريجياً من مقومات الحضارة"¹⁰.

وقد اشتدّ الصراع، ودامت المناورات بين المزابيين والسلطة الفرنسية للأسباب التي مرّ ذكرها، واعتبر المزابيون أنّ التعليم القرآني الخاص بهم بمثابة المقاومة السلمية الصامته.

وقد أحصى كتاب تاريخ بني مزاب 11 محاضرة ودار تعليم للقرآن الكريم ومختلف الفنون في بني يزقن سنة 1914 م، كما نقل عن المستشرق GROSSMANN إحصاء 22 محاضرة في قرى وادي مزاب السبع سنة 1924 م بـ 569 تلميذا¹¹.

⁸ - المصدر السابق، ص 420.

⁹ - يُنظر: صالح فخار، (جوان 1993 م)، نظام التعليم الحربوادي ميزاب، دراسة وصفية تحليلية للمدارس والمعاهد الحرة في المنطقة، مذكرة ليسانس، جامعة الجزائر، معهد علم النفس وعلوم التربية، ص 27.

¹⁰ - يوسف بن بكير الحاج سعيد، (2017)، تاريخ بني مزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، الطبعة الرابعة، ص 191.

¹¹ - يُنظر: المصدر السابق، ص 240، نقلاً عن المستشرق GROSSMANN, Le (GROSSMANN), Réformisme Ibadhite, 60.

4.3- المرحلة الرابعة:

تمتد هذه المرحلة من بداية العشرينات من القرن الماضي حيث نشطت حركات الإصلاح بمزاب فرفضت الاستعمار والتجنيد الإجباري الذي صدر قانون تطبيقه على مزاب سنة 1912م لأنهم كانوا يرون فيه "إفسادا لشبابهم بما يتعودونه من موبقات في الثكنات ويرونه كفرا لأنهم يُجْرُونَ به إلى محاربة إخوانهم المسلمين في الشرق وفي الغرب"¹² فاتَّحدت مع حركات التعليم بمزاب التي يقودها العزابة وكبار الطلبة فدعت إلى ضرورة إصلاح التعليم بإدخال الوسائل العصرية وتجهيز المدارس، فتأسست الجمعيات التي تولّت أمر التربية والتعليم في كامل قرى مزاب والتي كانت في بداية الأمر سراً خوفاً من تدخّل السلطة الحاكمة، رغم صدور تشريع 01 جويلية 1901م حيث "أقرّت السلطات الفرنسية بحرية إنشاء الجمعيات بعد ضغط سياسي واجتماعي كبيرين"¹³.

وفي سنة 1928م "رأت جمعية الإصلاح بغرداية.. أن ترسم نفسها حسب قانون الجمعيات.. فكانت أول جمعيات التربية والتعليم"¹⁴، ثم توالى طلبات الرخصة من مختلف الجمعيات بقصور وادي مزاب، فتم ترسيم جمعيات عديدة، بل توسّع الترسيم إلى تجمعات المزابيين خارج وادي مزاب، كتأسيس جمعية الوفاق بالعاصمة الجزائرية سنة 1929م، وجمعية الهدى بولاية قسنطينة سنة 1932م...¹⁵

استمرّت الجمعيات محافظة على أهدافها في تحفيظ القرآن الكريم وتعليم التلاميذ أمر دينهم، وتربيتهم على الأخلاق الإسلامية حتى بعد استقلال الجزائر فالتحقت بعضها بوزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي مثل مدرسة عمي سعيد التي اعتُمدت سنة 1973م.

¹² - تركي رابح، مصدر سابق، ص 421.

¹³ - آمال معوشي، (مارس 2020)، حرية إنشاء الجمعيات في الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي (1830-1930)، مجلة البحوث التاريخية، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، المجلد 04، العدد: 01، ص 132.

¹⁴ - تركي رابح، مصدر سابق، ص 422.

¹⁵ - يُنظر: يوسف بن بكير الحاج سعيد، (2017)، تاريخ بني مزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، الطبعة الرابعة، ص 244-245.

5.3- المرحلة الخامسة:

وهي المرحلة الحالية حيث تشهد فيها مؤسسات التعليم الحر استقرار متواصلا، وتطورا شاملا من حيث التعليم والبرامج المخصصة له، والمناهج التربوية التي يتعلم بها التلاميذ المنتسبون إلى هذه المؤسسات.

وتختلف هذه المؤسسات من حيث المناهج التي تعتمدوها، فمنها التي تقوم بتدريس الطلبة أو الطالبات تعليما كاملا، يلتزم بالمناهج الرسمية والمناهج الشرعية الحرة، ومنها التي تلتزم بالمناهج الشرعية الحرة فقط وتستقبل الطلبة الذين يدرسون بالمؤسسات الرسمية التابعة لوزارة التربية والتعليم والجزائرية.

تتوزع هذه المؤسسات على كامل قصور وادي مزاب، ومختلف المدن الجزائرية شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، وقد تعددت في القصر الواحد بوادي مزاب أو في المدينة الواحدة خارج مزاب.

تطور التعليم الحر بهذه المؤسسات من حيث المناهج التربوي فعمدت إداراتها إلى تأليف مناهج خاصة لهذه المؤسسات تراعي خصوصية الفكر والمجتمع.

ولن نجانب الصواب إن قلنا إن التعليم في المدرسة الحرة عند المزابيين يُعتبر إلى اليوم من الواجبات العرفية، سواء كان بوادي مزاب أو خارجه رغم تطور الأوضاع الفكرية والاجتماعية، وانتشار الثقافات المنحرفة في الإعلام.

وانقطاع التلميذ عن التعليم الحر يعرض والده للاملاحة.. وهو الأمر الذي كان عُرفا شائعا لدى كل المدن الجزائرية التي كانت معروفة بكتاتيبها المزدهرة في وقت سابق، فتوقف أغلبها إلا ما ندر.

ولتحقيق أهداف هذه المؤسسات الحرة والتعاون على التحديات والمستجدات الفكرية أو الاجتماعية؛ تم إنشاء رابطة عامة تنضوي تحتها كامل تلك المؤسسات.

تختلف حصص الدراسة في مؤسسات التعليم الحر حسب الأعمار والمكان، فالتلميذ في المرحلة الابتدائية بوادي مزاب يدرس حصتين في كل يوم، مجتمعة في الفترة المسائية أو متفرقة بين الفقرة الصباحية والفترة المسائية (بعد صلاة الصبح، وقبل صلاة المغرب أو بعدها)، إلى جانب دراسته في المدرسة الرسمية، أما الطالب في المرحلة المتوسطة والثانوية فيدرس بعض المناهج الخاصة أو الشرعية مع حصص المناهج الرسمية، أو يدرس حصة واحدة بالفترة المسائية بعد خروجه من المدرسة الرسمية.

وقد حاولت جهات عديدة توجيه هذه المؤسسات إلى الاندماج تحت قانون المدارس الخاصة، إلا أن ذلك لم يكن مناسباً لإدارات مؤسسات التعليم الحر في توجهاتها وأهدافها الخيرية.

4. مرتكزات مؤسسات التعليم الحر في تنمية رصيد اللغة العربية لدى التلاميذ

والطلبة:

يرصد هذا العنصر أهم المرتكزات التي ساهمت بها مؤسسات التعليم الحر في تنمية رصيد اللغة العربية لدى تلاميذ مؤسسات التعليم الحر بوادي مزاب وطلبتها، ويمكن أن نلخصها فيما يلي:

1.4- تعليم القرآن الكريم وتحفيظه:

يُعتبر تعليم القرآن الكريم وتحفيظه للتلاميذ الصغار من أهم الوسائل التي ساهمت في تنمية الحرف العربي والتدريب عليه خاصة في السنوات الأولى التي قد لا يفهم فيها التلميذ أصلاً معنى الكلمة التي ينطقها، لكنه يحرص على نطقها نطقاً سليماً، ثم يحفظها ويستظهرها.

ويعتمد تحفيظ القرآن الكريم في أغلب مدارس التعليم الحر على طريقة التلقين والتكرار، آية بعد آية، إذ يقرأ مُعَلِّم القرآن الكريم الآية الأولى ثم يُعيد لها التلميذ، ويتكرّر

هذا المشهد مع الآية الواحدة ومع المقطع كاملاً إلى حدّ الحفظ والاستظهار، زيادة على الكتابة التي يُشاهدها التلميذ من السّبورة أو المصحف، أو في اللّوح¹⁶.

"وللقرآن الكريم أثر عظيم في اللغة العربية، وإليه ترجع نشأة معظم علوم اللغة العربية؛ من نحو وصرف ولغة ومعجم وبلاغة وأدب وغيرها. وكان دافعاً لأهل الإسلام من عرب وغيرهم من العجم ليتسابقوا في تعلّم العربية، وتعليمها، وإجادتها، وإتقانها، والتسامي إلى لغة القرآن الكريم، ومحاكاة بيانه، والعناية بها وخدمتها في شتى المجالات"¹⁷.

فهو الذي أخرج فصحاء الأدب العربي وبلغاءه وأصحاب المقامات والرسائل وغيرها؛ أمثال ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب، والحري¹⁸، لذا يمكننا أن نقول أنّ تحفيظ القرآن الكريم ساهم في إثراء رصيد تلاميذ المدارس الحرّة بقدر لا بأس به من اللسان العربي الفصيح.

وللقرآن الكريم أيضاً أهمية بالغة في حفظ التلاميذ والطلبة لقواعد الإملاء ورسم الكلمات وحروفها، يقول نور الدين العتر: والسّر في ذلك أنّ رسم القرآن جعل أصلاً للكتابة العربية، ثم تطوّرت قواعد إملاء العربية بما يتناسب مع مزيد الضبط وتقريب رسم الكلمة من نطقها، فكان للقرآن الكريم الفضل في حفظ رسم الكلمة"¹⁹.

¹⁶ - الكتابة على اللوح طريقة قديمة كانت تعتمد عليها كل المحاضر والكتاتيب قديماً، لكنها انحصرت حالياً، وبقيت بعض المدارس أو المحاضر الحديثة تعتمد عليها، وتتمثل في كتابة الطالب للقسط الذي يريد حفظه من القرآن الكريم في لوح خاص، ثم يقوم معلّم القرآن الكريم بتصحيحه له، ثم يحفظه ويستظهره لينتقل إلى قسط آخر.

¹⁷ - واسيني عبد الله، (2018)، وجوه تأثير القرآن الكريم على علوم اللغة العربية، دراسة استقصائية، مجلة البحوث والدراسات، جامعة الوادي، المجلد 15، العدد 01، ص442.

¹⁸ - يُنظر: المصدر السابق، ص445.

¹⁹ - نور الدين عتر، (1889-1988)، القرآن الكريم والدراسات الأدبية، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة دمشق، سورية، ص361.

ويقول بروكلمان²⁰ مبيّنا فضل القرآن الكريم في نشر اللغة العربية واتساعها: "بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعا مؤمنون بأن اللغة العربية هي وحدها اللسان الذي أُحلّ لهم أن يستعملوه في صلواتهم وبهذا اكتسبت اللغة العربية منذ زمان طويل رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى التي تنطلق بها شعوب إسلامية"²¹.

وقد ورد في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الحاج لخضر باتنة في الجزائر ما يلي: "شكّلت المؤسسات التربوية القديمة في الجزائر قاعدة متينة حفظت اللغة العربية، وساهمت في تحفيظ القرآن الكريم وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم والتعريف بسيرته العطرة، وهذه المؤسسات شملت المساجد والكتاتيب والرباط والزوايا وغيرها"²².

وتُخصّص للتلميذ في المدارس الحرة بوادي مزاب يوميا حصّة للقرآن الكريم تتجاوز الساعة الواحدة بين التحفيظ والتلقين والاستظهار، إضافة إلى برنامج صيفي مكثّف للاستزادة والتقدّم في سُور القرآن الكريم، حتى يُعتبر التلميذ خاتما للقرآن الكريم فمستظّهرها له.

"ولعل الارتباط الشديد بالقرآن الكريم جعل اللغة العربية تتموقع بسهولة في هذا المجتمع، بل وتأسر كثيرا من أبنائه بحيث نجد منهم الشعراء والكتّاب والخطباء والمؤلفين ذوي الباع الكبير والتفوق في الساحة الأدبية والثقافية الجزائرية والعربية"²³ أمثال شاعر

²⁰ - مستشرق ألماني، عاش في النصف الأول من القرن العشرين، مهتم بدراسة تاريخ الأدب العربي، والتراث الإسلامي.

²¹ - كارل بروكلمان، (1983)، تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبد الحليم النجار، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ج1، ص56.

²² - إسلام حب الدين، (2022)، مليكة النوي، الملامح العامة لمشروع التربية الروحية والدينية لجمعية العلماء المسلمين، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة باتنة 1، المجلد 15، العدد 01، ص 168.

²³ - بن يحيى يحيى (2017)، دور التعليم القرآني في تعريب المشهد الثقافي الميزابي المعاصر في الجزائر، المؤتمر الدولي السادس للغة العربية، المجلس الدولي للغة العربية، ص 8.

الثورة الجزائرية مفدي زكرياء (ت:1977م)، وعميد الصحافة الجزائرية الشاعر الأديب الشيخ أبي اليقظان (ت:1973م)، والدكتور الشاعر محمد صالح ناصر (معاصر).

كما أثبتت دراسات ميدانية أخرى على أنّ حفظ القرآن الكريم يزوّد الحافظ - لاسيما الناطق بغير العربية- بعدد من الألفاظ والتراكيب تساعده على سرعة استيعاب القراءة وبالتالي سلامة في التعبير²⁴.

2.4- منهاج اللغة العربية:

يكتسي منهاج اللغة العربية أهميّة خاصة بمؤسسات التعليم الحرسواء من ناحية إعداد المنهاج وتطويره أو من ناحية الحجم الساعي له خلال الأسبوع الواحد²⁵.

ففي منهاج اللغة العربية للتعليم الابتدائي لمؤسسة الشيخ عبي سعيد²⁶ إحدى أهم مؤسسات التعليم الحروبدي مزاب بقصر غرداية نجد أنّ مادة اللغة العربية لها حصتين في كل أسبوع إلى ثلاث حصص في بعض السنوات من نفس المرحلة الابتدائية لمختلف محاور المادة: كالنحو والصرف وقواعد الإملاء.

وإذا كانت مدة الحصة الواحدة ساعة ونصف، فتكون مدة المادة من ثلاث ساعات إلى أربع ساعات ونصف في الأسبوع، إضافة لما يتلقاه التلميذ في المدرسة الرسمية.

²⁴ - يُنظر: أحمد بن أحمد، سيد علي غبريد، (2021)، أثر القرآن الكريم في اكتساب مهارة الكلام والقراءة لغير الناطقين باللغة العربية، مجلة دراسات لسانية، جامعة البليدة 2، المجلد 5، عدد 1، ص 15.

²⁵ - تم الاطلاع على التوزيع السنوي للمواد التعليمية لمدرسة عبي سعيد، للموسم 2022-2023.

²⁶ - مؤسسة الشيخ عبي سعيد إحدى المؤسسات الكبرى للتعليم الحروبدي مزاب بقصر غرداية، تأسست نواتها سنة 1958م، ثم تطورت تدريجيا وتوسّعت، فأصبحت حاليا تضم الآلاف من الطلبة في مختلف الأقسام والأعمار ذكورا وإناثا، وفي عشرات الفروع موزعة على كامل بلدية غرداية. تنتسب المؤسسة إلى الشيخ سعيد بن عليّ الجبري المشهور بالشيخ عبي سعيد الذي توفّي سنة 927هـ/1521م، وقد إلى مزاب من جزيرة جربة فقام بحركة علمية كبيرة في المنطقة واستقر بها.

كما يتم في التعليم الابتدائي لمؤسسة الشيخ عمي سعيد استغلال نشاط "أقرأ" في مادة التربية الإسلامية لتنمية مهارة القراءة لدى التلميذ، واستغلال حصة واحدة في كل أسبوعين لمادة التعبير الكتابي.

وقد اعتمدت سابقا مؤسسة الشيخ عمي سعيد مثلا كتاب النحو الواضح²⁷ بمختلف أجزائه مقررا لمختلف سنوات التعليم الابتدائي، لكن مع تطوّر الوقت اعتمدت منهاجا خاصا لها في مختلف السنوات، أُعدّ من طرف قسم المناهج والتكوين التربوي التابع لنفس المؤسسة.

3.4- التدريس اليومي:

يعتمد برنامج التدريس في المدارس الحرة بوادي مزاب على الحصص اليومية المتتالية من السبت إلى الخميس بنظام حصة بعد صلاة الفجر وأخرى بعد صلاة العصر، أو بنظام حصتين من بعد صلاة العصر إلى ما بعد صلاة العشاء.

وإدارات مدارس التعليم الحر لها نظام صارم للتلميذ في الحضور والانضباط خلال الموسم كاملا، بحيث يعرّض المخالفين لعقوبات صارمة.

وبهذه النقطة أيضا يختلف هذا التعليم عن البرامج الأخرى في مختلف ولايات الوطن في المساجد والأحياء ودور التعليم والكتاتيب، إذ التعليم اليومي الملزم سبب للرسوخ والتمكّن.

4.4- لغة المدرسة:

إن الزائر للمدارس الحرة بوادي مزاب يلحظ مدى استعمال المزابيين للغة العربية داخل المدرسة، فرغم أن لغة التخاطب بين المزابيين هي اللغة الأمازيغية المزابية، إلا أن لغة الاستعمال في المدرسة هي اللغة العربية.

²⁷ - كتاب النحو الواضح – المرحلة الابتدائية، مؤلفه: علي الجازم، ومصطفى أمين.

وقد نجد هذا الضبط في لوائح النظام بهذه المؤسسات، وهو ما وقف عليه مجموعة من الباحثين في لوائح المدرسة الجابرية²⁸ القرآنية، عند زيارتهم لها في إطار بحث²⁹.

"وبقراءة لسانية اجتماعية لهذا المشهد؛ نجد المنظومة التعليمية تسير على نهج الدولة الجزائرية في سياستها اللغوية، من خلال... الفعالية في تعريب المحيط ونشر العربية، دون أي تنافر أو صراع أو تداخل مع اللغة الأم (الأمازيغية المزابية) من جهة، ودون انسلاخ أو تدجين باتباع الفرنسية (لغة المستعمر) بدعوى كونها سهلة أم لغة عالمية"³⁰.

5.4- اللغة الأم (لغة الاستعمال اليومي):

إن خصوصية منطقة وادي مزاب التي تجاوزت فيها العربية والمزابية في تناغم ليس عاملا معيقا لثراء الرصيد اللغوي لدى التلاميذ بل كان حافزا لهذا الثراء، لأن حديث التلميذ باللغة العربية الفصحى والشعبية (لغة الشارع) بين المدرسة والشارع يوقعه في خلط بعض الألفاظ وتداخلها لتقارب بعض الألفاظ والكلمات، بخلاف ما إذا كان التلميذ خارج المدرسة يستعمل اللغة المزابية فسيستاد اللغة العربية سليمة كما تعلمها في المدرسة، ولن يحدث له الخلط في الألفاظ إلا نادرا..

وهذا هو الواقع فقد نجد الكثير من التلاميذ المزابيين في حديثه مع الغير خارج المدرسة سيحدثه باللغة العربية الأصيلة لعدم إتقانه للغة الشعبية التي يتحدث بها سائر الجزائريين.

²⁸ - المدرسة الجابرية من أقدم مدارس التعليم الحروبدي مزاب، قصر بني يزقن.

²⁹ - ينظر: بن يحيى ومناع أمانة وعبد السلام محرز، (2015)، دور المدرسة الجابرية القرآنية في تعليم العربية ونشرها في الجزائر، المؤتمر الدولي الأول للدراسات اللغوية، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا، ص 10.

³⁰ - بن يحيى (2017)، دور التعليم القرآني في تعريب المشهد الثقافي الميزابي المعاصر في الجزائر، المؤتمر الدولي السادس للغة العربية، المجلس الدولي للغة العربية، ص 8.

6.4- الاقتداء بخادمي اللغة العربية:

إضافة إلى المرتكزات التي ساهمت في إثراء الرصيد اللغوي لدى التلاميذ والطلبة بمؤسسات التعليم الحربوادي مزاب؛ فإنّ المزابيين عموماً يتعلّقون باللغة العربية تعلّقاً كبيراً باعتبار أنها لغة القرآن الكريم، واللغة التي اختارها الله تعالى أن تكون وعاء لكلامه.

وخاصة وهم يرون في ذلك قُدوتهم من المزابيين الذين سَخّروا مواهبهم وجهودهم لخدمة اللغة العربية أمثال الشيخ اطفيش والشيخ بيوض، وأبي اليقظان، وأبي إسحاق إبراهيم اطفيش، ومفدي زكرياء، ورمضان حمود، وصالح خرفي... والدكتور محمد صالح ناصر.

5. مظاهر ثراء الرصيد اللغوي لدى الطلبة المتخرجين من مؤسسات التعليم

الحر

إنّ من أهمّ مظاهر ثراء الرصيد اللُّغوي لدى الطلبة المتخرجين من مؤسسات التعليم الحر نتائجهم الدراسية والأرقام التي يحقّقونها على مستوى الأفراد أو المستوى العام.

يقول عمر بيوض: "والى حدّ الآن فإنّ طلبة معهد الحياة هم الأقوى في العربية في سائر الامتحانات ما يصرّح بذلك الممتحنون وكما تدلّ عليه النقاط التي يحصلون عليها، وكثير منهم اليوم يعلّمون العربية لمسولين كبار في مختلف الإدارات في الجزائر وقسنطينة، ووهران وبجاية وغيرها..."³¹.

³¹ - تركي رابح، مصدر سابق، ص 428.

ويقول يحي بن يحي: "وقد استطاعت المدارس والمعاهد الحرة المزابية أن تحرز التفوق لتلاميذها في المسابقات الكبرى مثل البكالوريا، وتضمن لخريجها مستوى رفيعا من المعرفة يجعلهم يتميزون في مختلف المعاهد والجامعات"³².

ومن خلال الاطلاع على خلاصة لتحليل نتائج البكالوريا في ولاية غرداية سنة 2022، والصادر من مديرية التربية لولاية غرداية؛ نجد أن نسبة الحاصلين على المعدل (20/10) في مادة اللغة العربية في شعبة العلوم التجريبية لم تنخفض تحت 70% مقارنة بانخفاضها في المؤسسات الأخرى إلى 50%.

كما أظهر التحليل حصول طلبة ثانوية عبي سعيد³³ في شهادة البكالوريا - دورة 2022 أن نسبة الحاصلين على المعدل (20/10) في مادة اللغة العربية بشعبة الآداب والفلسفة هي 89.47%، أما في شعبة العلوم التجريبية فكانت نسبتهم 89.02%، وارتفعت نسبتهم في شعبة الرياضيات إلى 92.52%، وكلها نسب تؤكد القاعدة الصلبة التي مرّ عليها هؤلاء الطلبة في تكوينهم في اللغة العربية.

6. خاتمة وتوصيات:

إن مسيرة الصمود والتحدّي التي عرفتها مؤسسات التعليم الحربوادي مزاب منذ نشأتها ساهمت بشكل كبير في إثراء الرصيد اللغوي لدى التلاميذ والطلبة، ولدى المتخرجين والمزايين منها عموما.

وبهذا سنكون قد أجبنا عن الإشكالية المطروحة في أول البحث، وتعرّفنا على الحد الكبير الذي ساهمت به هذه المؤسسات في تنمية رصيد اللغة العربية لدى التلاميذ والطلبة.

³² - بن يحي يحي (2017)، دور التعليم القرآني في تعريب المشهد الثقافي الميزابي المعاصر في الجزائر، المؤتمر الدولي السادس للغة العربية، المجلس الدولي للغة العربية، ص 7.

³³ - ثانوية حرة، تابعة لمؤسسة الشيخ عبي سعيد، تم عرض تعريف لها سابقا.

فعلى المزاين الحفاظ على هذا النموذج من التعليم، وتطويره بما يتوافق مع متطلبات الأجيال، وتقدم الحضارة الإنسانية، والسعي بكل جهد وتفان لكيلا يتأثر بالأفكار الجارفة المنحرفة، والنظريات التي تتعارض مع الهوية الأصيلة للمجتمع الجزائري.

وعلى الجزائريين جميعا أن يقتفوا أثره ليحققوا هذه الغايات السامية، والمنجزات الهامة، ولوبجزء منه كتنظيم تحفيظ القرآن الكريم للناشئة، وتأطير برامج خاصة للتلاميذ في مختلف مراحل تعليمهم بأن يكون لهم جزء من أوقاتهم لدراسة اللغة العربية وعلوم القرآن الكريم والشريعة، فهذا نتمكّن من الحفاظ على هويتنا الإسلامية الجزائرية.

ويمكن تذييل الخاتمة بهذه النتائج المختصرة:

1. مؤسسات التعليم الحر أو التعليم القرآني بوادي مزاب هي امتداد للحركة العلمية ونظام الحلقة الذي أسسه الإمام أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي، وقد ساهم بدوره الأساسي في استمرار هذا التعليم إلى تاريخ اليوم.
2. الحصار التي فُرض على التعليم القرآني بوادي مزاب من طرف الاستعمار الفرنسي شهدته كل ربوع الجزائر والمدارس القرآنية، إلا أن أغلب المناطق الجزائرية استسلمت للوضع وتركت هذه النوع من التعليم فتأثرت بهذا الغزو، أما في وادي مزاب فقد سارع المشرفون على التعليم إلى تأسيس جمعيات ترعى هذا التعليم وترخص له.
3. تركز مؤسسات التعليم الحر بوادي مزاب في مناهجها الدراسية على التعليم القرآني، وما يخدمه من المناهج الشرعية، والتربية الأخلاقية، واللغة العربية.
4. يعتبر تعلّم القرآن الكريم وسيلة أساسية وفعّالة في تنمية الرصيد اللغوي لدى التلاميذ نطقا وكتابة وفهما.. ويعتبر أداة مساعدة للفصاحة والخطابة والثقافة اللغوية.

5. الحفاظ على اللغة العربية الفصيحة وعدم خلطها بألفاظ شعبية غير فصيحة أو لغة الشارع يقي المتكلم من اللحن والزيادة، ويحميه من الخلط بين ما هو فصح وغيره.

6. مظاهر ثراء اللغة العربية تظهر واضحة في النتائج والدراسة والتمكن اللغوي بعد التكوين الرصين خاصة في القواعد والأسس منذ الصغر.

المصادر والمراجع:

1. محمد صالح ناصر، (1989م)، حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي، دراسة وصفية تحليلية للمجالس الدينية بوادي ميزاب "جنوب الجزائر"، مكتبة الضامري، دط، دارالنصر للطباعة الإسلامية، القاهرة.
2. تركي رابح، (1972م)، التعليم القومي والشخصية الوطنية (1931-1956)، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، ملحق رقم (8)، تقرير عن التعليم العربي الحر بوادي ميزاب، رسالة من إبراهيم عمر بيوض إلى تركي رابح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
3. صالح فخار، (جوان 1993م)، نظام التعليم الحر بوادي ميزاب، دراسة وصفية تحليلية للمدارس والمعاهد الحرة في المنطقة، مذكرة ليسانس، جامعة الجزائر، معهد علم النفس وعلوم التربية.
4. يوسف بن بكير الحاج سعيد، (2017)، تاريخ بني مزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، الطبعة الرابعة، المطبعة العربية.
5. بالحاج بن باحمد ناصر، (2018)، النظم والقوانين العرفية بوادي مزاب في الفترة الحديثة، جمعية التراث، القرارة، غرداية.
6. الطلبة الجامعيون المزابيون بقسنطينة، (أفريل 1999)، محاضرات الأسبوع الثقافي الثاني عشر، تحت عنوان: أضواء على التعليم الحر.
7. أمال معوشي، (مارس 2020)، حرية إنشاء الجمعيات في الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي (1830-1930)، مجلة البحوث التاريخية، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، المجلد 04، العدد: 01.
8. واسيني عبد الله، (2018)، وجوه تأثير القرآن الكريم على علوم اللغة العربية، دراسة استقصائية، مجلة البحوث والدراسات، جامعة الوادي، المجلد 15، العدد 01.

9. نور الدين عتر، (1988-1889)، القرآن الكريم والدراسات الأدبية، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة دمشق، سورية.
10. كارل بروكلمان، (1983)، تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبد الحليم النجار، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة.
11. إسلام حب الدين، (2022)، مليكة النوي، الملامح العامة لمشروع التربية الروحية والدينية لجمعية العلماء المسلمين، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة باتنة 1، المجلد 15، العدد 01.
12. بن يحي يحي (2017)، دور التعليم القرآني في تعريب المشهد الثقافي المزابي المعاصر في الجزائر، المؤتمر الدولي السادس للغة العربية، المجلس الدولي للغة العربية.
13. أحمد بن أحمد، سيد علي غبريد، (2021)، أثر القرآن الكريم في اكتساب مهارة الكلام والقراءة لغير الناطقين باللغة العربية، مجلة دراسات لسانية، جامعة البليدة 2، المجلد 5، عدد 1.
14. بن يحي يحي ومناع آمنة وعبد السلام محرز، (2015)، دور المدرسة الجابرية القرآنية في تعليم العربية ونشرها في الجزائر، المؤتمر الدولي الأول للدراسات اللغوية، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا.
15. صالح سعيد باهون، بشير موسى الحاج موسى، (2006)، الجذور التاريخية للتعليم القرآني الحربمزاب وتطوره، بحث مرقون نشر مؤسسة الشيخ عمي سعيد، غرداية.
16. عبد الرحيم برشو، يوسف بن دبيلي، (2018)، دلالات المنجز اللغوي في القرآن الكريم، دراسة في علمي التفسير واللغة، مذكرة ماستر، جامعة الشهيد حمة لخضر، الوادي.